الموسيقا

جبران خليل جبران

الموسيقا

MUSIC (1905)

By Kahlil Gibran

مع مقدّمة عامة ودراسة تحليلية

بقلم الدكتور نزار بريك هنيدي

❖ الموسيقا / جبران خليل جبران

❖ مقدمة عامة ودراسة تحليلية: د. نزار بريك هنيدي

❖ الطبعة الأولى عام 2002 عدد النسخ 1000 نسخة

❖ يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة رسلان علاء الدين

للطباعة والتوزيع

سورية دمشق ص . ب 30598

هاتف: 5617071 فاكس: 5613241

مدخل إلى أدب جبران

بقلم الشاعر
الدكتور نزار بريك هنيدي

بماذا يتميّز الأدب الحقيقي من غيره من الأعمال الكتابية؟ وما هي المعايير التي تتيح لنا الحكم على أدب ما بأنه أدب رفيع وعظيم؟ وإذا كان تذوق النص الأدبي مرهوناً للذائقة الشخصية التي تختلف بين متلق وآخر، كما أنها تتنوع وتتطور وتتغير بين بلد وآخر، وبين عصر وعصر، فكيف يتاح لنا أن نطلق حكم القيمة الموضوعي دون أن يكون هذا الحكم مشوباً بالكثير مما تمليه الأهواء الذاتية، أو تفرضه النزعات الفردية؟

نعرف تماماً كم قيل من كلام، وكم أريق من حبر، في المحاولات المستمرة للإجابة عن هذه الأسئلة التي تشكل أساس علم الأدب، ولب جميع النظريات النقدية، منذ أن اجترح الإنسان نصوصه الأدبية الأولى. وفي يقيني إنَّ هذه المحاولات لن تتوقف ما بقي الإنسان ينتج الأدب ويتذوَّقُهُ، أو بعبارة أخرى، ما بقي الإنسان محتفظاً بجوهره الأصيل.

وبالرغم من أن المدارس الأدبية المختلفة، قد وضعت عدداً من المعايير المتباينة لتقويم العمل الأدبي، إلا أن هذه المعايير لم تكتسب صفة الشمولية أو الثبات، بل بقيت نسبية، إذا قبلت بها طائفة من النقاد أو المتلقين، رفضتها أخرى، وإذا انطبقت على نص ما، فإنها لم تنطبق على نصوص أخرى، لا يستثنى من ذلك سوى معيار واحد، يكاد يجمع عليه الجميع، وما هذا المعيار سوى نجاح العمل الأدبي في امتحان الزمن.

فالنص الذي يتجاوز عصره الذي كُتِبَ فيه، ويبقى قادراً على بثّ المتعة الأدبية، وجذب جمهور القراء، بعد انقضاء الشروط الزمانية والمكانية التي كانت تحكم ظروف إنتاجه، هو النص العظيم بامتياز. ذلك أن الزمن هو الغربال الحقيقي والحكم الفصل في قيمةِ أدبيّةِ أي عملٍ كتابيّ.

ومما لاشكَّ فيه، إنَّ أعمال جبران خليل جبران، من هذه الأعمال التي استطاعت أن تصمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه. ذلك أنها اليوم، وبعد مرور أكثر من سبعين عاماً على وفاة مبدعها، مازالت تتصدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ومازالت دور النشر تتسابق على إعادة إصدارها بطبعات شعبية أحياناً، وطبعات فاخرة أحياناً أخرى.

كما أن أعمال جبران لم تتجاوز حدود الزمان فحسب، بل تجاوزت حدود المكان أيضاً، فهي اليوم مقروءة في جميع بقاع الأرض، بعد أن تمت ترجمتها إلى معظم لغات العالم.

واعتماداً على هذا المعيار الذي قلّما يخطئ، فإن المهمة الملقاة

اليوم على عاتق النقاد والباحثين الذين يدرسون أعمال جبران، تتخطّى مسألة إطلاق حكم القيمة عليه، إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، وهو محاولة سبر أغوار الأدب الجبراني للوقوف على الخصائص الأصيلة التي يتميز بها، واستقراء العوامل التي جعلته قادراً على ملامسة الجوانب الأكثر عمقاً وشفافيّة في الجوهر الإنساني.

ولما كان إبداع جبران خليل جبران لا يمكن فصله عن الحياة الاستثنائية التي آثر أن يعيشها كفنان استثنائي، فلا بد لنا من وقفة قصيرة مع فصول سيرته التي كانت مصدر إلهامه في الكثير من أعماله.

سيرة جبران :

ولد جبران خليل جبران في السادس من كانون الثاني عام1883 في مدينة صغيرة تقع فوق وادي قاديشا في شمال لبنان، تدعى (بشري). ومن الطريف أن جبران الذي كان يؤمن أوثق الإيمان بالتقمّص (على حد قول ميخائيل نعيمة) ما كان يحسب ولادته في شمالي لبنان مصادفة عمياء، بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة.

ذاق جبران منذ طفولته طعم الفقر والقهر، فأبوه الذي نأى بالخمر عن شؤون الأسرة، كان يعمل في عد الأغنام والماعز في الجرود لجباية الرسوم عليها، وقد أوقف بتهمة الاختلاس، فاحتجزت أملاكه وفرضت عليه الإقامة الجبرية في مركز قريب من المحكمة، مما

اضطر والدة جبران (السيدة كاملة) أن تترك زوجها ووطنها، وتهرب بأولادها الأربعة من الذل والهوان مهاجرة بهم إلى مدينة (بوسطن) في الولايات المتحدة الأمريكية.

ووالدة جبران كانت سيدة ذكية وقوية، تركت تأثيراً بالغاً وعميقاً في حياته وشخصيته، وقد وصفها في إحدى رسائله إلى (مي زيادة) بقوله: (كانت محبوبة في محيطها، ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شقيقة، و لا في أعلى درجاتها أقل من سيدة، لقد أفهمتني وأنا بعد في الثالثة، أن الرابطة بيننا هي كما بين صديقين، رابطة حب متبادل، وأننا كائنان مستقلان جمعتهما يد الحياة الشريفة، كانت أعجب كائن عرفته في حياتي).

وفي (بوسطن) بدأت الوالدة في العمل هي وابنها البكر (بطرس). أما جبران فقد ألحق بمدرسة شعبية وبدأ تعلم اللغة الإنكليزية. ولفتت موهبة جبران في الرسم انتباه إحدى معلماته التي كتبت إلى صديقها المثقف الثري (فريد هولاند داي) طالبة منه الاعتناء بجبران، وأعجب الفنان الثري بهذا الفتى الشرقي الذي يمتح رسومه من معين الطبيعة البكر، فتعهده بالتعليم والرعاية، وعَرَّفَهُ بعدد من الفنانين والأدباء، كما أسند إليه مهمة رسم أغلفة عدد من الكتب التي تنشرها دار (كويلا اند داي) ليجني منها بعض ما يسد نفقاته.

إلا أن جبران بقي يطمح إلى الدراسة في لبنان وبلغته العربية، فوفَّرَتْ له أمه ما يكفل له العودة إلى وطنه الذي وصل إليه أوائل

خريف عام 1989 ، وانتسب إلى مدرسة (الحكمة) ليدرس اللغة العربية وآدابها.

وقد روى الخوري (يوسف الحداد) وكان أستاذ البيان في المدرسة أن جبران جاءه يشكو وضعه في الصف الابتدائي رغم ما حَصَّلَهُ من معرفة باللغة الإنكليزية وإتقان لفن الرسم، فقال له الخوري (ألا تعلم أن السلّم يرقى درجة درجة)، فما كان من جبران إلا أن يردّ بقوله (بلى، ولكن هل يجهل الأستاذ أن الطائر لا ينتظر السلّم في طيرانه)، فاقشعر بدن الخوري الذي شعر أنه أمام عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ.

وفي مدرسة الحكمة نهل جبران من معين التراث العربي، فقرأ كليلة ودمنة، ونهج البلاغة، وديوان المتنبي، بالإضافة إلى التوراة والإنجيل.

أما عطلته الصيفية فكان يقضيها في بلدته (بشري) رغم أنه لم يستطع التواصل مع والده الذي كان قد انتهى إلى حالة من البؤس والفقر جعلته لا يقدّر موهبة ابنه، فوجد جبران عزاءه في الطبيعة وفي صداقته لأستاذه في مرحلة الطفولة (سليم الضاهر) وفي رعاية أحد الوجهاء الذي يدعى (طنوس الضاهر)، والذي سوف تنشأ علاقة عاطفية بين ابنته حلا وبين جبران، أعاد جبران استيحاءها بعد عشر سنوات في قصة (الأجنحة المتكسرة).

إلا أن الزمن أبى إلا أن ينغّص على جبران ما بدأ يشعر به من إلفة

واطمئنان، ففي نيسان1902 بلغه خبر وفاة أخته (سلطانة) مما اضطره إلى ترك دراسته، والعودة سريعاً إلى (بوسطن). وهناك وجد أخاه (بطرس) مصاباً بمرض السل. ثم لم تلبث أمه أيضاً أن أصيبت بالمرض، وانتابتها حالة من اليأس والقنوط، فراح جبران يكتب لها بعض الخواطر التي يمكن أن تشدّ من أزرها بالرغم من أنه هو نفسه كان في تلك الفترة شديد الاضطراب. وقد كتبت صديقته (جوزفين) في مفكرتها واصفة حالته في تلك المرحلة: (جاءني جبران بالغ التعاسة، إنني أعرف في أعماق قلبي ما يقاسي من عذاب، وإنني فخورة بهذا العبقري الذي استقوى على واقعه).

وسرعان ما قضى المرض على أخيه (بطرس)، وما هي إلا أيام معدودات حتى لحقت به أمه، فعظمت المصيبة على جبران الذي قال في وفاتها: (ما بكيت عليها لأنها أمي وحسب، بل لأنها صديقتي. لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة. إنها أعذب ما تحدثت به الشفاه البشرية: يا أمي، تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة والمملوءة بالأمل والحب).

ورغم أن الحب الذي جمع جبران مع الشاعرة الأمريكية (جوزفين بيبودي)، كان عزاء جبران في تلك المرحلة، إلا أن جوزفين أيضاً لم تلبث أن وضعت حدّاً لهذه العلاقة بزواجها من رجل ثري يختلف عن جبران الذي كان فقيراً وأصغر سناً منها، ولم يبق من ذلك الحب سوى ما سوف يفوح فيما بعد من صفحات كتاب (دمعة وابتسامة).

وبعد هذه الصدمات المتوالية، تفرّغ جبران لرسومه وكتاباته، فأقام معرضاً للوحاته ترك انطباعاً جيداً. وكان من بين زوّار المعرض ابنة رجل سياسي معروف، سوف يكون لها شأن هام في حياة جبران، وتدعى (ماري هاسكل). وقد بلغ إعجابها بلوحاته أن دعته إلى عرضها في المدرسة الخاصة التي تديرها. كما تعرّف في الوقت نفسه على الصحفي (أمين الغريب) الذي كان يصدر جريدة (المهاجر)، فأخذ ينشر مقالاً أسبوعياً فيها.

وأصدر جبران كتابه الأول (الموسيقا) عام 1905، وأتبعه عام 1906 بكتابه الثاني (عرائس المروج) الذي نشره له (أمين الغريب) في نيويورك، وبدأت كتابات جبران تلقى المزيد من الإعجاب بين قرّاء العربية لما تتضمنه من نكهة خاصة وأسلوب فريد.

وراحت العلاقة تتوطد بين جبران، وبين ماري هاسكل التي عرّفته على صديقة فرنسية اسمها (إملي ميتشل) وتعرف بـ (ميشلين) وهي التي سيتخذ منها جبران موديلاً لرسوماته، فتضطرم نار الحب مع خطوط ريشته ليعيش قصة حب جديدة. وربما كان لميشلين أثر في تعريف جبران بالشعر الفرنسي، وفي إذكاء رغبته في السفر إلى فرنسا التي كانت تعج بحركة فنية تنطلق منها الحركات الفنية الحديثة.

وربما كانت ميشلين نفسها هي التي أهدى إليها جبران كتابه الثالث (الأرواح المتمردة) الذي صدر عام1908 والذي صدّره بالتقديم

التالي: (إلى الروح التي عانقت روحي، إلى القلب الذي سكب أسراره في قلبي، إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفي أرفع هذا الكتاب).

وما كان من ماري هاسكل أمام رغبة جبران الجامحة في السفر إلى باريس، إلا أن وافقت على إرساله على نفقتها، فسافر في تموز1908 حيث كانت ميشلين في انتظاره. ودخل جبران أكاديمية (جوليان) وتعلم أصول الرسم على يد الرسام جان بول لورنس، لأنه كان قبل ذلك يرسم معتمداً على فطرته دون أية دراسة أكاديمية، وهو ما عبر عنه بقوله (كنت في الظلام، والآن أشعر أنني أسير في الغسق نحو النور).

وخلال وجوده في باريس، لم ينقطع عن مراسلة (ماري هاسكل) بالرغم من وجود ميشلين إلى جانبه، بل إنه يقول لماري في إحدى رسائله (ميشلين الحلوة هي أم صغيرة عزيزة وطفلة صغيرة عزيزة، إنها في الواقع عون).

ولما اشتدّ به المرض آثر أن يعود إلى جانب ماري هاسكل طالباً منها الزواج، ورغم حبها لجبران وإعجابها به، إلا أنها رفضت عرض الزواج كي لا تحدّ من طموحه الإبداعي، وكان لها أن أرسلته إلى نيويورك ليتعرف على الأدباء العرب فيها وعلى رأسهم (أمين الريحاني).

وفي نيويورك عرضت لوحات جبران، وفي سنة 1912 أصدر روايته (الأجنحة المتكسرة) وأهداها (إلى التي تحدق بالشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتشعة، وتسمع نغمة الروح

الكلي من وراء ضجيج العميان وصراخهم، إلى ماري هاسكل)، وبعد سنتين صدر كتابه (دمعة وابتسامة).

وفي هذه المرحلة بدأت تلك العلاقة النادرة بينه وبين الأديبة (مي زيادة) عبر الرسائل التي لم تنقطع بينهما حتى وفاته.

ومنذ سنة 1912 بدا جبران أكثر التحاماً مع قضايا وطنه الذي يعاني وطأة الاحتلال العثماني، فكتب المقالات التي تدعو العرب إلى الاتحاد لمقاومة العثمانيين، وحين عمّت المجاعة لبنان سنة1916 كتب نصّه (مات أهلي) كما اشترك في حملة لجمع التبرعات.

وفي عام 1920 أسس جبران مع ميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وأمين الريحاني وآخرين (الرابطة القلمية) وانتخب جبران رئيساً لها. وقد أصدر عام 1919 قصيدة (المواكب) وهي القصيدة الوحيدة التي اعتمد فيها الوزن والقافية. ثم أصدر عام 1920 كتابه (العواصف)، وفي عام 1923 نشرت له مكتبة العرب في مصر كتاب (البدائع والطرائف).

وكان جبران قد أتقن اللغة الإنكليزية بفضل علاقته مع ماري هاسكل، التي استمرت في مراجعة ما يكتبه بالإنكليزية حتى بعد أن غادرت بوسطن وتزوجت. وقد أصدر جبران كتاب (المجنون) عام1918 باللغة الإنكليزية وأتبعه عام1920 بكتاب (السابق) وعام1923 صدر كتابه (النبي) الذي سرعان ما أصبح أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

وفي سنة 1925 التقى مع الشاعرة الأمريكية (باربرة يونغ) التي

أصبحت سكرتيرته الخاصة، وكان قد اتجه نهائياً إلى الكتابة بالإنكليزية. فأصدر كتاب (رمل وزبد) عام 1926، وكتاب (يسوع بن الإنسان) عام 1927، و(آلهة الأرض) عام 1930، و(التائه) سنة 1931 وكتب فصولاً من كتاب (حديقة النبي) التي سوف تعمل سكرتيرته على إتمامه ونشره بعد وفاته، ففي ربيع 1931 اشتدت عليه وطأة المرض، فنقلته سكرتيرته إلى المستشفى حيث ودّع الحياة في العاشر من نيسان، وتلبية لوصيته تم نقل جثمانه إلى بلدته (بشري) حيث رقد رقدته الأخيرة.

عوامل التكوين :

شكّلت أعمال جبران خليل جبران منعطفاً جديداً في تاريخ الثقافة العربية، وعلامة فارقة في الأدب العالمي كله، وكان ذلك نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل:

منها ما كان مركوزاً في عمق شخصيته، التي تجنح نحو مثالية طهرانية، لا تعترف بالإنسان إلا متعبداً في محراب القيم العليا من خير ومحبة وعدالة وجمال.

ومنها ما كان نتيجة للواقع الذي عاشه في طفولته في لبنان، حيث أدرك بحسه المرهف النافذ مدى الانفصام الحاصل بين فتنة الطبيعة الخلابة، وبين قسوة علاقات الحياة اليومية بين البشر، فاختار الانحياز إلى الطبيعة وسحرها، وآمن أن في الطبيعة قوى أكثر جدارة

بإضفاء المعنى على الوجود البشري، من تلك القوى المادية التي تستهلك روح الإنسان وجسده. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي وراء اعتناقه لفكرة التقمّص منذ المراحل المبكرة من حياته. وهو السبب أيضاً وراء تلك الرومانسية الطاغية التي ترى في عالم الغاب الجنَّةَ الوعودة، حيث لا شرور ولا آثام وليس سوى المحبة والجمال، وهذا ما يفسّر ولعه الشديد بتلك (التيمة) البلاغية الأثيرة التي قلما يخلو منها نص من نصوصه، وهي تجسيد الطبيعة وموجوداتها ككائنات تفيض بالحياة.

ولا ريب في أن ما ورثه جبران من الثقافة العربية يشكّل لبنة رئيسة من لبنات المعمار الجبراني. فقد قرأ الشعر العربي والفلسفة العربية، فأعجب بابن الفارض الذي قال عنه (في شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون). كما فتنته قصيدة ابن سينا في النفس التي يقول عنها: (ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي، وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس). وبعد أن يقارن بينها وبين أبيات لشكسبير وشيللي وغوته وبراونن يقرر أن (الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة، فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة، وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده).

كما يبدي إعجابه بالغزالي الذي يعتبره (أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوسطينوس).

إلا أن أهم ما ورثه جبران عن الثقافة العربية والشرقية هو تَمَثّلُهُ

لشخصية المخلّص أو (النبي) ولغته ومواقفه. وهو ما يعبّر عنه جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل عام1929 حيث يقول (إن الطموح الجوهري للشرقي العظيم هو أن يكون نبيّاً). غير أن الجبرانيّة (على حد تعبير أدونيس في كتابه الثابت والمتحول) هي، جوهرياً، نبوة إنسانية، ويضيف أدونيس (إن الفرق بين النبوة الإلهية والنبوة الجبرانية هي أن النبي في الأولى ينفذ إرادة الله المسبقة، الموحاة، ويعلم الناس ما أوحي له، ويقنعهم به. أما جبران، فيحاول على العكس، أن يفرض رؤياه الخاصة على الأحداث والأشياء، أي وحيه الخاص، وحين نفرغ النبوة من دلالتها الإلهية، نجد أنها الطريقة والغاية لنتاج جبران كله. فجبران يقدم مفهوماً جديداً، ضمن تراث الكتابة الأدبية العربية، للإنسان والحياة).

ولا بدّ من ذكر عامل آخر شديد الأهمية من عوامل التكوين الجبراني، يتجلى فيما نهله جبران من معين الثقافة الغربية ليتمثّله ويصهره مع المكوّنات الأخرى لشخصيته وإبداعه.

وحسبنا هنا أن نشير إلى تأثّر جبران بنيتشه وكتابه (هكذا تكلم زرادشت) الذي اعتبره جبران (من أعظم ما عرفته كل العصور)، كما نشير إلى إعجابه بشكسبير وشيللي لأنهما تحررا من (ربقة الماضي)، وكذلك (وليم بليك) الذي يقول عنه: (لن يتسنى لأي امرئ أن يتفهّم بليك عن طريق العقل، فعالمه لا يمكن أن تراه إلا عين العين).

بنية الأدب الجبراني :

أمـا بنيـة الأدب الجـبراني، فتتـألف مـن مزيـج مـن العنـاصر الرومانسية والواقعية والصوفية والثورية والحداثية، التي استطاع جبران أن يؤالف بينها في توليفة سحرية، لا تتأتى إلا لمبدع كبير حقاً. فأدبه رومانسـي وواقعـي وصوفـي وثـوري وحداثـي فـي الوقـت نفسـه، وإذا كنّـا سنفصل بين هذه العناصر فيما يأتي، فما ذلك إلا لغرض دراسي بحت نهدف منه إلى التدليل على وجودها. أما كيف تتجدل هـذه الخيـوط وتتفاعل فيما بينها لتتماهى في النسيج الأدبي لنصوصه، فذلك هو سرّ هذه النكهة الخاصة التي تمنح أعمال جبران فرادتها وخصوصيتها.

الرومانسية

تتجلّى (رومانسية جبران) أكثر ما تتجلّى في تمجيده للإنسان، الذي لا يراه محور الكون، ولبَّ الوجود وحسب، بل إنه يرفعه إلى مصاف الألوهية، إذ إنّ (الإنسانية روح الألوهية على الأرض) على حد تعبيره في نصه (صوت الشاعر).وهو يقول في (نشيد الإنسان): (أنا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء).

كما يقول في موضع آخر: (على أنني وجدت بين هذه النكبات المخيفة، والرزايا الهائلة ألوهية الإنسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل

ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتّل أنشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها، فلا نهاية لي).

ومن مظاهر رومانسيته أيضاً الاحتفاء بالطبيعة وتمجيد عناصرها، فهي الجنة التي ليس فيها حزن ولا ألم ولا ظلم:

ليس في الغابات حزن	لا ولا فيها الهموم
فإذا هبّ نسيم	لم تجئ معه السموم
ليس في الغابات حرّ	لا ولا العبد الذميم
إنما الأمجاد سخف	وفقاقيع تعوم
لم أجد في الغاب فرقاً	بين نفس وجسد
فالهوا ماء تهادى	والندى ماء ركد

بل ربما كان جبران قد وصل في بعض أبيات هذه القصيدة إلى كتابة أبلغ ما يطمح إليه الرومانسيون في التعبير عن تعبّدهم في محراب الطبيعة، ودعوة الناس إلى العودة إلى أحضانها:

هل تحمّمتَ بعطرٍ	وتنشّفتَ بنور
وشربت الفجر خمراً	في كؤوس من أثير
هل فَرَشْتَ العشبَ ليلاً	وتَلَحَفّتَ الفضا
زاهداً فيما سيأتي	ناسياً ما قد مضى؟

ومن تجليات رومانسيته أيضاً تغنّيه الدائم بالحزن والألم والوحدة، وولَعُهُ بمناجاة الليل والقمر والبحر والريح والضباب والسكون والصمت، وشغفه بتجسيد موجودات الطبيعة، وتشخيص العواطف البشرية، وتحويل الكثير من صفحات كتبه إلى مسارح تصول وتجول فيها الأرواح والأشباح والجنيات والساحرات. اسمعه في مقطوعته (أيها الليل) يقول: (ياليل العشاق والشعراء والمنشدين، يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة، يا ليل الشوق والصبابة والتذكار. أيها الجبّار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر، المتقلّد سيف الرهبة، المتوّج بالقمر، المتّشح بثوب السكوت، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم).

الواقعيّة

وتبدو (واقعيّة) جبران واضحة في قراءته المتعمّقة لأحوال الواقع، وما يعجّ به من مآس ومظالم وآلام، ومعالجته لكل ذلك في قصصه وكتاباته، مشخصاً العلّة في كل حالة، وداعياً إلى مجابهتها ومقاومتها، في سبيل تنقية العالم من الشرور والآثام، وجعله أكثر جدارة بالإنسان.

فهو يبني قصته (مرتا البانية) على مقولة أن المرأة الداعرة، قد لا تكون سوى فتاة فقيرة سحقها الظلم الاجتماعي ورمى بها الفقر والحرمان إلى الدرك الذي آلت إليه. لذلك يقول لها جبران: (إي يا مرتا، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية).

أما قصة (يوحنا المجنون)، فقد بناها على ما أدركه في الواقع من أن الرجال الذين يتسترون بإهاب الدين، قد لايكونون أقل وحشية وقدرة على ظلم الآخرين وسلبهم أرزاقهم وحريتهم من غيرهم من الطغاة والمجرمين.

كما ان قصة (وردة الهاني) يمكن اعتبارها المعادل الأدبي لما كان يجري ولا يزال- في الواقع، من قهر للمرأة، وإرغامها على الزواج بمن لا تحب، لا لشيء إلا لأنه القادر على دفع الثمن. أما عواطف المرأة ومشاعرها وحقها في الاختيار فهي أمور يضرب بها المجتمع عرض الحائط، مما يؤدي إلى تلك المآسي التي مازالت تتكرر حتى اليوم في مجتمعاتنا. وهكذا يمكن للقارئ أن يجد الأساس الواقعي لكل قصص جبران الأخرى، مثل صراخ القبور، ومضجع العروس، وخليل الكافر والأجنحة المتكسرة وغيرها.

وتتضح (واقعيّة) جبران أيضاً في تفاعله مع القضايا السياسية اليومية التي يعاني منها أبناء أمته الرازحين تحت نير الاستعمار التركي، فهو ما فتئ يحرّضهم على الثورة على الاحتلال، ويحذرهم من مغبة التعاون مع الحكم التركي، ويؤكد أن لاسبيل أمامهم لانتزاع حريتهم سوى بالاعتماد على الذات، وإن الاتحاد هو السلاح الأمضى في مواجهة أعدائهم.

وفي مقالته (الأمم وذواتها) يعيد الثقة بنهضة الذات العربية حين يقول (أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها

الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبّار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل مايقف في سبيلها، ولما بلغت العباسيين تربّعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس، ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية، قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها، فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً، وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما كان خفيّاً في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس).

وكان جبران يواكب جميع الأحداث التي تمرُّ بأمته، فعندما اعتقل الأتراك عدداً من الثوّار عام 1911 كتب عن (الانحطاطية المطلقة) للأتراك، وحين حلّت المجاعة عام1916 كتب نص (مات أهلي)، ونص (في ظلام الليل).

كما كتب نصوصاً متعددة يحضّ فيها أبناء أمته على التخلص من كل ما يعيق نهضتهم وتحررهم، كما في نص (الأضراس المسوسة)، ونص (المخدرات والمباضع) وغيرها.

الصوفيّة

أما (صوفيّة) جبران، فنلمسها في اعتناقه للنهج العرفاني الذي يعتمد الحدس والرؤيا والبصيرة للوصول إلى المعرفة. فإذا كان العقل يرى المظهر الخارجي للأشياء عبر البصر، فإنَّ القلب يرى بالبصيرة

جوهرها الأصل، ويفهم أعمق أعماقها. يقول جبران: (تلك الرؤيا، تلك البصيرة، ذلك التفهم الخاص للأشياء الذي هو أعمق من الأعماق وأعلى من الأعالي).

ولايمكن للمرء أن يصبح رائياً حقيقياً إلا بعد أن يتخطى جدران الحاضر، ويزيل البراقع التي يسدلها الواقع على وجهه، كما أزال (المجنون) في كتاب جبران البراقع، فالتهبت نفسه بمحبة الشمس. يقول جبران (ولما فَصَلَتْ تصوّراتي بيني وبين البشريّات وأزاحت تخيّلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقرّبني من الطبيعة ويبيّن لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها).

ومن مظاهر (صوفيته) أيضاً إيمانه بوحدة الوجود، فما الإنسان إلا بضعة من الذات الإلهية. يقول جبران على لسان علي الحسيني في (عرائس المروج): (شعر بأنّ جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر). فالله فصل شعلة من ذاته، ومن هذه الشعلة كان جوهر النفس البشرية. كما يقول في كتابه(دمعة وابتسامة): وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً..وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لا حدَّ لها ولا مدى وجمع بين الإنسان ونفسه). والإنسان هو كلمة الله، كما يقول في كتابه(رمل وزبد): (تكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً). وإن أحلام الإنسان وعواطفه ما هي إلا جزء من الروح الكلي الخالد، كما جاء في قوله: (ولكن الأجيال التي تمرّ، وتسحق أعمال الإنسان لا تفني

أحلامه، ولا تضعف عواطفه.. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل، وبالقمر عند مجيء الصباح). وعندما يصف بطله (يوحنا) في (عرائس المروج) يقول: (ويوحنا يتألم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح).

ولئن كانت غاية الصوفي أن يترفّع عن رغد الحاضر وكدره في سبيل تحقيق غايته الأسمى، وهي الاقتراب من جوار الذات الإلهية، فإن جبران يقول في (المواكب):

فإن ترفَّعتَ عن رغدٍ وعن كَدَرٍ   جاورتَ ظلَّ الذي حارَتْ به الفكرُ

كما يقول في موضع آخر(ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام)، ويقيناً فإن هذه العبارة تبدو، وكأنها خارجة من أحد كتب المتصوفة الكبار.

الثوريّة

وربما كانت (الثوريّة) هي السمة الأكثر نصاعة من سمات الأدب الجبراني. فجبران ثائر متمرّد لا يرى للحياة معنى إن لم تكن نضالاً دؤوباً في سبيل الحرية. فالحريّة وحدها هي التي تحقّق إنسانية الإنسان. لذلك نسمعه يتضرع في محرابها: (من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا) ويقول في

موضع آخر: (أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهون، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، ونصّبتها الجهالة المستمرة).

و لأن جبران ثائر حقيقي، فقد كان لا بدَّ له من أن يحرّض على الثورة على كل ما يستلب الحرية، أو ينتقص منها، وعلى كل من يمارس الاضطهاد والاستغلال، ويبث الآثام والشرور، ويعيق ممارسة الإنسان لحقه الطبيعي في التمتع بالخير والعدل والجمال.

ولذلك يعلن جبران ثورته على الحكّام والأمراء ورجال الدين والإقطاعيين والأغنياء الذين يتحالفون فيما بينهم ضد جماهير الفقراء والمستضعفين، وهو يرى في تحالفهم الأسود هذا (علّة مزمنة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية).

يقول جبران: (ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعيّ الفلاح المسكين والكاهن يمدّ يديه إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً، وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد، وتضمحلّ الأرواح).

ولم يكن جبران مجرّد مصلح اجتماعي، بل كان ثوريّاً حقيقياً ومتمرّداً أصيلاً. لذلك امتدّت ثورته لتشمل كل ما من شأنه الحد من

حرية الإنسان مهما بلغ من قدسية أو رسوخ. فوجد أن أسس الظلم الاجتماعي تكمن في استغلال الشريعة لتبرير السيطرة على جموع الشعب، لذلك قال (الشريعة، وما هي الشريعة؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله، فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين: احرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟).

كما ثار على العادات والتقاليد، ورأى أن التمسك بموروث الماضي البالي ما هو إلا موت حقيقي. يقول جبران: (ان بليّة الأبناء في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات) كما يقول: (وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات، وأشكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم، وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم، وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة، وقبوراً مكلسة لعظام بالية).

وتتجلى ثوريّة جبران في مواقفه السياسية، ولاسيما في دعوته أبناء أمته إلى الثورة من أجل التحرر من النير العثماني. فهو يقول في رسالة له إلى ماري هاسكل عام1911 بعد أن بلغته أخبار من سورية بوجود من يدعو إلى التعاون مع الحكم التركي: (أحاول أن أبشّر السوريين الذين يعتمدون على الحكم الجديد في تركيا، بأن يعتمدوا على الذات.. أريدهم أن يعرفوا أن عرش السلطان الجبار مبني على رمل رطب. لماذا يركعون أمام صنم ملوث مادام أمامهم فضاء لا حدَّ له).

وحين عقد مؤتمر باريس لبحث قضيّة الحكم الذاتي في سورية، وكان من المقرّر حضور جبران هذا المؤتمر كمندوب عن السوريين في أمريكا، رفض الحضور، لأن وجهة نظره كانت رفض الدبلوماسية التي لن تؤدي إلا إلى وضع سورية، والبلاد العربية تحت حماية أجنبية جديدة. ويؤكد جبران أن ليس أمام العرب سوى أن يعلنوا الثورة، فبالثورة وحدها يمكن لهم أن ينتصروا.

وفي معالجة جبران للعلل التي تعاني منها الأمة كان يرفض أيضاً أي منهج إصلاحي فهو يقول: (في فم الأمة السورية أضراس بالية سوداء قذرة ذات رائحة كريهة، وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالميناء، وإلباس خارجها رقوق الذهب، ولكنها لاتشفى، ولن تشفى بغير الاستئصال).

وحين قامت الثورة السوفياتية الاشتراكية أعلن فرحه، وقال في رسالة إلى (ماري هاسكل) سنة1917: (إن الذات العتيقة للجنس البشري آخذة في الموت السريع، والذات الجديدة آخذة بالانبثاق كجبّار فتي). وقال (وجميع القياصرة، وجميع الأباطرة في العالم كله لن يستطيعوا أن يجعلوا الزمن يمشي إلى الخلف).

الحداثة

أما حداثة جبران فلا تقتصر على ما قام به من هدم لأفكار الماضي البالية، التي تكبّل الإنسان وتعيق تقدمه وتطوره، ومن زعزعة

للأسس التي يقوم عليها الاستغلال والاضطهاد، ومن تبشير برؤيا جديدة يصبح فيها الإنسان سيّد مصيره، وسيّد الطبيعة من حوله، رؤيا تقوم على الحريّة والحب والعدل والجمال. بل إن أية نظرة إلى الإنجاز الجبراني تبقى ناقصة إذا لم تدرك أنه كان إيذاناً بثورة الحداثة التي سوف تنقل الكتابة العربية من حال إلى حال، أو كما يقول (أدونيس): (تبقى أهمية جبران الأولى في أنه سلك طريقاً لم تعرفها الكتابة العربية.. فلم تعد الكتابة العربية، بدءاً منه، تتأمل ذاتها في المرايا اللفظية، بل أصبحت تنغمس في العذاب والبحث، والتطلع، ومن هنا امتلأت بالحيوية..). ولذلك يعتبره أدونيس (مؤسساً لرؤيا الحداثة، ورائداً أوّل في التعبير عنها).

تقوم حداثة جبران على رفضه للمفهوم التقليدي للشعر، فالشاعر ليس من يستخدم الكلام العادي، ويصبّه في قالب مسبق الصنع ليصف مظاهر الأشياء. وهو ليس من يلمُّ المعاني المطروحة على قارعة الطريق ليتخيّر لها الألفاظ المناسبة، ويجّود في سبكها، ويقيم لها وزنها. بل الشاعر هو من يرى ما وراء الأشياء، ويغوص إلى الأعماق. هو من (يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية) حسب وصف جبران لابن الفارض.

والشعر هو قول ما لا يمكن للغة الكلام العادية أن تقوله، وهو ما يعبّر عنه جبران في العبارة التالية: (في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الألفاظ ثوباً. أغنية تقطن حبّة قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على

الورق). فلغة الكلام العادية لا يمكن أن تصلح للتعبير عما يحسّه الشاعر ويراه. لذلك لا بدّ لكل شاعر من أن يخلق لغته الخاصة به، وهو ما أدركه جبران فقال: (ففي العربية خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة، كانت قد وصلت حدّاً بالغاً من الكمال. لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة).

وكما أن لغة الكلام العادية لا تصلح للشعر، فكذلك لا يوجد شكل محدد يمكن له أن يحتوي ما يفجّره الشعر من كشوف ورؤى. فمجال الشعر هو: (الشيء الآخر الأبعد في الإنسان، الشيء الذي لا نفهمه، والذي نسعى لأن نجد شكلاً يعبّر عنه، ولم نجده حتى الآن). حسب تعبيره.

وهكذا كان لا بدّ لجبران من أن يسخر من هؤلاء الذين يعتمدون القوالب الجاهزة والصيغ القديمة: (لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها، وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح، وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود، وفصم عرى تلك الأوصال).

بل إنه يسخر حتى من هؤلاء الذين يحاولون تقليد عمالقة الشعر العربي والنسج على منوالهم، لأنهم بذلك يفتقدون أصالة التعبير عن ذواتهم، ولا ينتجون سوى نسخة ثانية باهتة لانضرة فيها ولا حياة: (ولو تنبّأ المتنبي، وافترض الفارض أن ما كتباه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاهير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان، وحطّما الأقلام بأيدي الإهمال).

ذلك أن المقلّد لا يكتشف شيئاً، ولا يختلق أمراً، فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة على حد تعبير جبران، الذي يقول أيضاً (فإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها، فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها).

وكان جبران يعي أن ثورته الحداثية على الأشكال القديمة والصيغ الجاهزة والأوزان الموروثة تهدم لكي تبني، وكان يدرك أنه لا بدّ للمجددين من امتلاك مواهب جبارة لإنجاز حداثتهم: (أما الآن فأنا أريد الأشياء الجبارة التي تدمّر كيما تبني بناءً نبيلاً).

وأخيراً، هل استطاع جبران أن ينجز فيما كتبه من نصوص إبداعية بناء جميع أركان الصرح الحداثي الذي بشّر به؟ بالطبع لا. فتلك مهمة منوطة بحركة الحداثة العربية برمتها، التي مازالت تعمل على إنجازها حتى اليوم. ألم يقل هو نفسه: (جئت لأقول كلمة وسأقولها، وإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد.. والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة).

وحسب جبران أنه كان برقاً مبكّراً من البروق التي أضاءت فضاء الأدب العربي المعاصر، وأضرمت فيه نار الحداثة والإبداع.

د. نزار بريك هنيدي

الموسيقا

كتاب جبران الأول

دراسة تحليليّة

أصدر جبران عام 1905 في نيويورك كتابه الأول الموسوم بـ(الموسيقا). وهو في الحقيقة مقال كتبه قبل أن تنضج تجربته الفنية، أي قبل أن يتمكن من امتلاك أدواته الأدبية، ذلك الامتلاك الذي سوف يمنح كتاباته اللاحقة، فرادتها وأهميّتها، ويتيح لها أن تتبوّأ مكانتها المتميزة في حقول الإبداع.

لذلك يمكن للمرء أن يجد في هذا الكتاب من المآخذ ما يجده في أي إصدار أول لأي من الأدباء الآخرين، لاسيّما إذا قرأناه اليوم بذائقتنا التي ابتعدت عن الذائقة التي كانت تسود الزمن الذي صدر فيه بما يقرب من قرن كامل.

ومع ذلك، فإننا إذا ما عاودنا قراءة هذا الكتاب قراءة استرجاعية، بمعنى أن نقرأه على خلفيّة إدراكنا لأبعاد تجربته بعد أن تكاملت في

مؤلفاته جميعها، فيمكن لنا أن نقف على مجموعة من السمات والملامح والأفكار التي تشكل بذوراً أولى لعناصر منجزه الإبداعي.

وعلى هذا الأساس، يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: لماذا بدأ جبران حياته الأدبية بالكتابة عن الموسيقا؟

ويمكن لنا الاجتهاد في الإجابة بأن الموسيقا تمثل أسمى حالات الفن الصافي، الذي رآه جبران أقرب إلى نفسه، وأكثر التصاقاً بمفهوم الإبداع، كما رأى أن معاصريه قلما يعيرونه الاهتمام الكافي، فهم إذا ما سمعوا قصيدة، انصرفوا إلى معانيها المباشرة، وحكموا على صاحبها بمقدار ما نجح في تقليد شعر الماضي، لا بمقدار ما أبدع وأضاف وجدّد. ولذلك استخدم جبران (الموسيقا) ليقول رأيه في الفنون جميعها، وليؤكد أن ضرورة الفن للإنسان نابعة من طبيعته الخاصة كفن، وليس مما يمكنه حمله من شعارات وأقوال.

وللحقيقة، فإن جبران يصارح قارئه بغرضه ذاك عندما يؤكد في كتابه إنَّ ما يقوله عن الموسيقا ينطبق على الفنون جميعها، فهو يقول: (والموسيقا كالشعر والتصوير، تمثّل حالات الإنسان المختلفة، وترسم أشباح أطوار القلب وتوضّح أخيلة ميول النفس، وتصوغ ما يجول في الخاطر، وتصف أجمل مشتهيات الجسد).

وبهذا المعنى، يمكن اعتبار كتاب (الموسيقا) لجبران، بمثابة البيان أو (المانيفستو) لمذهبه في الفن والفكر والحياة، وليس مجرّد مقال إنشائي يعرض فيه انطباعاته ومعارفه عن الألحان والأنغام.

فمنذ الصفحة الأولى من الكتاب، يشير جبران إلى أن الموسيقا هي تلك القوة التي يهتزّ لها القلب اهتزازات كهربائية تفصل الذات عن الذات، فتطير النفس سابحة في فضاء لا حدّ له ولا مدى، حيث ترى الكون حلماً والجسد سجناً ضيّقاً.

وهو عندما يقول إنه شعر بتلك القوة في صوت حبيبته، يؤكد عدم علاقتها بفحوى الحديث الذي تسرّ به حبيبته إليه. ذلك أن هذه القوة وحدها لها كلامها الذي يغني عن كل كلام آخر، بل هي تلك التي يمكن سماعها في التنهيدة التي تعقب الكلام، لذلك لا ضير إذا خرجت الألفاظ متقطعة، أو بقي من الكلمات نصفها بين الشفتين. فتلك القوة هي صوت النفس التي يتشكل جوهرها من العواطف المتجسّمة، فتغني عن جوهر كل حديث، هي أنامل رقيقة تطرق باب المشاعر وتنبّه الذاكرة، فتنشر هذه ما طوته الليالي من حوادث أثّرت فيها بماض عبر، هي جسم من الحشاشة، له روح من النفس، وعقل من القلب.

أليس واضحاً أن جبران يتحدث هنا عن جوهر الفن، الفن بالمطلق، الذي قد يكمن في حديث الحبيبة، وقد يتجلى في قصيدة أو لوحة، كما قد يتجسّد في مقطوعة موسيقية؟.

وبما أن الموسيقا هي مفردة من مجموع المفردات التي تؤلف ما اصطلحنا على تسميته (الفن)، فأعتقد أن جبران لجأ في كتابه هذا إلى الحديث عن المجموع بصيغة المفرد، أو عن العام بصيغة الخاص، أو عن الكل بصيغة الجزء، وهي طريقة معروفة في البلاغة العربية.

وعندما يقول: (وجد الإنسان، فأوحيت إليه الموسيقا من العلاء)، فهو يصرّح بمذهبه الفني والفلسفي الذي يؤمن أن الفنّ إلهام سماوي، فهو هدية من السماء إلى الإنسان ليتعزّى عن قساوة وقبح الواقع، ويشعر باتصاله مع العالم الآخر، عالم الجمال المطلق والفرح الأبدي. فالموسيقا (والفن بشكل عام) (كالمصباح، تطرد ظلمة النفس، وتنير القلب، فتظهر أعماقه..إنها أشباح الذات الحقيقيّة أو أخيلة المشاعر الحيّة، والنفس كالمرآة المنتصبة تجاه حوادث الوجود، وفواعله تنعكس عليها رسوم تلك الأشباح، وصور تلك الأخيلة).

والفن صلة الوصل بين الإنسان، وبين الحكمة المسطورة في ألواح سبقت الوجود برمّته. وهو أيضاً اللغة التي يستطيع الإنسان بوساطتها إنشاء علاقة حوار مع موجودات الطبيعة التي ما هي سوى تجل للقوة المبدعة الأزلية، (أصوات تناجيه بلغة خفية، وضعتها الحكمة قبل كيانه، فتحدثت نفسه والطبيعة مرات كثيرة).

ويتطرق جبران إلى مسألة تلقي الفن، ليؤكد أن آلية فهم وتذوّق الأعمال الفنية تختلف عن آلية فهم القول العادي. فتذوّق الفن وفهمه يتم أساساً في القلب عبر تفاعل حواس المتلقي ومخيلته مع ما يثيره الفن من صور وأنغام تخاطب المشاعر قبل أن تخاطب العقل، فهو يقول:

(الإنسان لا يدري ما يقوله العصفور فوق أطراف الأغصان، ولا الجداول على الحصباء، ولا الأمواج، إذ تأتي الشاطئ ببطء وهدوء، ولا يفقه ما يحكيه المطر إذ يتساقط منهملاً على أوراق الأشجار، أو عندما

يطرق بأنامله اللطيفة بللور نافذته، ولا يفهم ما يقوله النسيم لزهور الحقل، ولكنه يشعر أن قلبه يفقه ويفهم مفاد جميع هذه الأصوات فيهتزُّ لها تارة بعوامل الطرب، ويتنهّد طوراً بفواعل الأسى والكآبة).

وإذا كان تشبيه جبران للنفس بزهرة ليّنة في مهبّ ريح المقادير، والألحان بنسيمات لطيفة تهزّ أوتار العواطف، وحديثه عن تنهيدة الحبيبة، وجواهر عواطفها المتجسمة، وعن اللوعة التي تملأ الأضلاع، والشقاء الذي يتمثّل كالأشباح، وعن النفس التي تنتصب كالمرآة تجاه حوادث الوجود وفواعله، فتتعكس عليها رسوم الأشباح وصور الأخيلة.. إذا كان كل ذلك يعبّر عن الرومانسيّة المتأصلة في شخصية جبران وفي إبداعه، فإننا يمكن لنا بالإضافة إلى ذلك أن نلمح الكثير من ملامح ميوله الصوفية، ولاسيّما في قوله (ترى الكون حلماً، والجسد سجناً ضيّقاً)، وفي حديثه عن الكتاب الذي وضعته الحكمة على صفحات المشاعر قبيل ابتداء الدهر، وفي مناجاته للتموجات الأثيرية التي تحمل أنفسنا إلى ما وراء المادة، وترينا ما تكنّه عوالم الغيب، وكذلك في تلميحه إلى التناقل والتناسخ واكتناف الكل في صدى القبلة الأولى التي وضعها آدم على شفتي حواء.

ولاشك أن في تصوّر جبران للفن كهبة من السماء وصلة وصل بينها وبين الإنسان، وكلغة للتواصل والحوار بينه وبين موجودات الطبيعة، بعد أن أضفى على هذه الموجودات جميع الصفات الحيوية التي تجعلها تتألم وتفرح وتبثّ مشاعرها وتصرّح بانفعالاتها، ما يشي بإيمانه بمذهب وحدة الوجود.

كما أن ذكره لابن الفارض دون غيره من الشعراء العرب، يدلّ على مدى تأثره به وبالشعر الصوفي.

وفي اللهجة التي يتكلم بها، ولاسيّما في المقطع الأخير من الكتاب، ما يفصح عن عمق تأثّره بالكتاب المقدّس، وما ينمّ عن (صوت النبيّ) الذي سوف ينطق به جبران في كتبه الأخيرة، وبشكل خاص في كتابه الأكثر أهميّة وشهرة: كتاب (النبي).

وعندما يسرد جبران عدداً ليس بالقليل من أساطير الشعوب القديمة كالكلدانيين والمصريين والفرس والهنود والآشوريين واليونان والرومان، فهو يفصح عن اعتقاده بوحدة الثقافة البشرية، التي تتفاعل وتتكامل عبر العصور. وإذا كان في ذلك ما يدلّل على عمق الثقافة التي امتلكها جبران في ذلك العمر الصغير، فإن فيه دلالة أيضاً على وعيه المبكّر بجماليّات وفاعليّة توظيف العناصر الأسطورية في بناء النص الأدبي. هذا التوظيف الذي سيصل إلى مداه الأكثر جمالاً واكتمالاً على أيدي شعراء الحداثة التمّوزيين، وعلى رأسهم بدر شاكر السيّاب، بعد نصف قرن تقريباً من صدور كتاب جبران هذا.

وإذا كان لا بدّ للناقد المتشدّد من أن يأخذ على جبران في هذا الكتاب بعض المآخذ، كالاسترسال والحشو غير المبرّرين أحياناً، وعدم إحكام الروابط بين المقاطع المختلفة مما يضعف تماسك البناء الفني للنص، ووضوح التكلّف في بعض تراكيبه اللغوية، إلا أن هذه

المآخذ جميعها هي في العادة من سمات الكتاب الأوّل لأي من المبدعين، كما أسلفنا.

وفي مقابل هذه المآخذ، استطاع جبران أن يضفي على لغة الكتاب مسحة من الشفافيّة والجدّة والطلاوة، في محاولة لتخليص لغة النثر من الهاويتين اللتين تردّت فيهما في عصره، وهما السطحيّة والابتذال من جهة، والتصنّع والتقليد من جهة أخرى. وبذلك كان يعمل على تأسيس ذلك الأسلوب الخاص من شعريّة النص النثري الذي تميّزت به كتاباته اللاحقة، والذي يمكن اعتباره، بشكل من الأشكال، أحد الأعمدة التي سوف تستند إليها تجارب النثر الشعري، وقصيدة النثر في الأدب العربي المعاصر.

ويمكن ملاحظة شاعرية لغة كتاب (الموسيقا) في عددٍ من الصور التخييلية الجديدة والمدهشة التي تنتشر على صفحات الكتاب، مثل تصويره للموسيقى بجسم من الحشاشة له روح من النفس وعقل من القلب، أو وصفه إياها بأنها (إناء مرارة الغرام وحلاوته)، وكذلك تشبيهه النفس بالمرآة المنتصبة تجاه حوادث الوجود، وغير ذلك من الصور التي لا يمكن أن تصدر إلا عن مخيّلة مبدع حقيقي.

كما يمكن ملاحظتها في لجوئه إلى ما يسمّى في النقد الحديث (تراسل الحواس) مثل قوله (رأيتها بعين سمعي). وفي وَلَعه بتجسيد المحسوسات مثل قوله (جواهر عواطفها المتجسمّة) و(ثمرة الحزن وزهرة الفرح) وغيرها.

ولا يمكن للقارئ المتذوّق إلا أن يؤخذ بذلك النغم الخاص الذي يفوح في فضاء النص، كشكل من أشكال (الموسيقا الداخلية) التي تنبع أساساً من جرْس الألفاظ، التي يختارها بعناية خاصة، ويربط فيما بينها بحساسية مرهفة، ومن التقابل بين الجمل ذات المقاطع الصوتية المتجانسة، ومن استخدامه المتكرّر لصيغ النداء التي تخلق في المستمع شعوراً بأنه يتلقى تراتيل مقدسة، لاسيّما حين يردّد وراءها لفظة (آمين).

ومهما قيل في كتاب (الموسيقا) لجبران، فإنه يبقى اللبنة الأولى من لبنات هذا الصرح الخالد، صرح الأدب الجبراني.

د. نزار بريك هنيدي

دمشق 2002/5/25

الموسيقا

جلست بقرب من أحبتها نفسي أسمع حديثها، أصغيت ولم أنبس ببنت شفة، فشعرتُ أن في صوتها قوّة اهتزّ لها قلبي اهتزازات كهربائيّة فصلت ذاتي عن ذاتي، فطارت نفسي سابحة في فضاء لا حدّ له ولا مدى، ترى الكون حلماً والجسد سجناً ضيّقاً.

سحر عجيب مازج صوت حبيبتي وفعل بمشاعري ما فعل وأنا لاهٍ عن كلامها بما أغناني عن الكلام.

هي الموسيقا أيّها الناس، سمعتها، إذ تنهّدت حبيبتي بُعيد بعض الكلمات، وابتسمت في بعضها. سمعتها لما حكت تارة بألفاظ متقطّعة، وآونة بجمل متواصلة، وأخرى بكلمات أبقت نصفها بين شفتيها.

تأثيرات قلب حبيبتي، رأيتها بعين سمعي، فشغلتني عن جوهر حديثها بجواهر عواطفها المتجسّمة بموسيقى هي صوت النفس.

بلى، فالموسيقا هي لغة النفوس، والألحان نسيمات لطيفة تهزّ أوتار العواطف، هي أنامل رقيقة تطرق باب المشاعر وتنبّه الذاكرة، فتنشر هذه ما طوته الليالي من حوادث أثرت فيها بماضٍ عبر.

هـي نغمـات رقيقـة تسـتحضر، علـى صفحـات المخيّلـة، ذكـرى ساعات الأسـى والحـزن إذا كانت محزنـة، أو ذكـرى أويقـات الصفـاء والأفراح إذا كانت مفرحة.

هي مجموع أصوات محزنة تسمعها، فتستوقفك، وتملأ أضلعك لوعة، وتمثّل لك الشقاء كالأشباح.

هي تأليف أنغام مفرحة، تعيها فتأخذ بمجامع قلبك فيرقص بين أضلعك فرحاً وتيهاً.

هي رنّة وتر تدخل سامعتك محمولة بتموّجات الأثير، فقد تخرج من عينيك دمعة محرقة أثارتها لوعة نأي حبيب أو آلام كلوم خرقها ناب الدّهر، وربّما خرجت من بين شفتيك ابتسامة كانت والحق عنوان السعادة والرخاء.

هي جسم من الحشاشة، له روح من النفس، وعقل من القلب.

* * *

وجد الإنسان فأوحيت إليه الموسيقا من العلاء، لغة، ليست كاللغات، تحكي ما يكنّه القلب للقلب، فهي حديث القلوب، وهي كالحبّ عمّ تأثيرها الناس، فترنّم بها البرابرة في الصحراء، وهزت أعطاف الملوك في الصروح. مزجتها الثكلى مع نوحها، فكانت ندباً يفتّت قلب الجماد، وبثّها الجذلان مع أفراحه فكانت إنشاداً يطرب

مغلوب الأرزاء، فقد حاكت الشمس، إذ أحيت بأشعتها جميع زهور الحقل.

الموسيقا كالمصباح، تطرد ظلمة النفس، وتنير القلب، فتظهر أعماقه، والألحان في قضائي أشباح الذات الحقيقيّة، أو أخيلة المشاعر الحيّة، والنفس كالمرآة المنتصبة تجاه حوادث الوجود وفواعله تنعكس عليها رسوم تلك الأشباح، وصور تلك الأخيلة.

النفس زهرة لينة في مهبّ ريح التقادير، نسيمات الصباح تهزّها، وقطرات الندى تلوي عنقها. كذا تعويذة عصفور تنبّه الإنسان من غفلته، فيصغي، ويشعر، ويمجد معه الحكمة مبدعة نغمة الطائر العذبة وشعوره الرقيق، وتهيج تلك التغريدة قوى فكرته، فيسأله ذاته، وما يحفّ به، عمّا أسرّه لحن ذلك الطائر الحقير، فحرّك أوتار عواطفه وأوحى إليه معاني ما حوتها كتب الأُلى تقدموه. يسأل مستفهماً عمّا إذا كان العصفور يناجي زهور الحقل، أم يحاكي أغصان الأشجار، أم يقلّد خرير مجاري المياه، أم ينادم الطبيعة بأسرها، ولكنه لا يستطيع إلى الحصول على الجواب سبيلاً.

الإنسان لا يدري ما يقوله العصفور فوق أطراف الأغصان، ولا الجداول على الحصباء، ولا الأمواج، إذ تأتي الشاطئ ببطء وهدوء، ولا يفقه ما يحكيه المطر، إذ يتساقط منهملاً على أوراق الأشجار، أو عندما يطرق بأنامله اللطيفة بللور نافذته، ولا يفهم ما يقوله النسيم لزهور الحقل، ولكنّه يشعر أن قلبه يفقه، ويفهم مفاد جميع هذه

الأصوات فيهتزّ لها تارة بعوامل الطرب، ويتنهّد طوراً بفواعل الأسى والكآبة. أصوات تناجيه بلغة خفيّة، وضعتها الحكمة قبل كيانه، فتحدّثت نفسه والطبيعة مرّات كثيرة وهو واقف معقود اللسان حائراً، وربّما ناب عن لفظه الدمع، والدمع أفصح مترجم.

* * *

تِ معي، يا صاحِ، إلى مسرح الذكرى لنرى منزلة الموسيقا عند أمم طوتها الأيّام، وتعالَ نتأمّل تأثيرها في كلّ دور من أدوار ابن آدم.

عبدها الكلدانيون والمصريون كإله عظيم يُسجد له ويُمجّد، واعتقد الفرس والهنود بكونها روح الله بين البشر. وقال شاعر فارسي ما معناه: إن الموسيقا كانت حورية في سماء الآلهة تعشقت آدميّاً وهبطت نحوه من العلو، فغضب الآلهة، إذ علموا وبعثوا وراءها ريحاً شديدة نثرتها في الجو، وبعثرتها في زوايا الدنيا، ولم تمت نفسها قطّ، بل هي حيّة تقطن آذان البشر.

وقال حكيم هندي: إنّ عذوبة الألحان توطد آمالي بوجود أبديّة جميلة.

والموسيقا عند اليونان والرومان كانت إلهاً مقتدراً، بنوا له هياكل عظيمة ما برحت تحدثنا بعظمتهم، ومذابح فخيمة، قدموا عليها أجمل قرابينهم وأعطر بخورهم.. إلهاً دعوه أبولون فمثلوه وجميع الكمالات تجعله منتصباً، كالغصن على مجاري المياه، يحمل القيثارة

في يسراه، ويمينه على الأوتار، رأسه مرفوع يمثل العظمة، وعيناه ناظرتان إلى البعيدة كأنّه يرى أعماق الأشياء.

وقالوا إنّ رنّات أوتار أبولون صدى صوت الطبيعة. رنّات شجيّة ينقلها عن تغريد الطيور، وخرير المياه، وتنهدات النسيم، وحفيف أغصان الأشجار.

وجاء في أساطيرهم أنّ رنّات أوتار أورفيوس الموسيقي حرّكت قلب الحيوان فاتبعته الضواري، والنبات، فمَدّت نحوه الأزاهر أعناقها، ومالت إليه الأغصان، والجماد، فتحرّك وتفتّت.

وقالوا: فقد أورفيوس زوجته، فبكاها، ورثاها نادباً حتى ملأت نغمة لوعته البريّة، فبكت الطبيعة لبكائه حتى حنّت قلوب الآلهة، ففتحت له أبواب الأبدية كي يلتقي حبيبته في عالم الأرواح.

وقالوا: قتلت بنات الأحراج أورفيوس ورمين برأسه وقيثارته إلى البحر، فطافا على الماء حتى بلغا جزيرة دعاها اليونان جزيرة الأغاني.

وقالوا: إنّ الأمواج التي حملت رأس أورفيوس، وقيثارته ما برحت مذ ذاك الحين تصوغ من أصواتها ندباً مؤثراً وأنغاماً محزنة، تملأ الأثير، فيسمعها الملاّحون.

هذا كلام بعد أن قضى عز تلك الأمّة ومضى، دعوناه خرافات مصدرها الوهم وأحلاماً ابتدعها التصوّرات، غير أنّه قول دّل على أن تأثير الموسيقا في صدور اليونان كان عميقاً وعظيماً، فقالوا ما قالوا

عن صحة اعتقاد، فما ضرّنا لو دعونا تلك الأقوال مبالغة شعريّة مصدرها رقّة العواطف ومحبّة الجمال، وهذا في عرف الشعراء الشعر.

نقلت إلينا آثار الآشوريّين رسوماً تمثّل مواكب الملوك سائرة وآلات الطرب تتقدّمها، وحدّثنا مؤرخوهم عن الموسيقا فقالوا: إنّها عنوان المجد في الحفلات، ورمز السعادة في الأعياد. أجل، فالسعادة بدونها تحاكي فتاة قطع لسانها. فالموسيقا لسان جميع أُمم الأرض، سبّحت معبوداتها بالأناشيد ومجّدتها بالألحان، وكانت التراتيل - وهي الآن - فرض كالصلاة يقدمونها في المعابد وكمحرقات يقفونها على القوّة المعبودة. محرقات مقدّسة مبدؤها عواطف النفس. صلوات يهذبها القلب وما أكملته اهتزازات المشاعر. أنفاس حرّة ما زلفتها الألفاظ، بل تظرّفت بها أنفاس أثارتها ندامة الملك داود، فملأت أناشيده أرض فلسطين وابتدعت أشجانه أنغاماً شجيّة مؤثرة منبعها انفعالات التوبة وحزن النفس، وكوسيط قامت مزاميره، بينه وبين الله، تطلب له مغفرة زلّاته، وكأن رنّات قيثارته، قد انبثقت من قلبه المنسحق وسرت مع قطرات دمه إلى أصابعه، فكانت تلك الأصابع عظيمة عند الله والناس، وهو القائل: هلّلوا للربّ، سبّحوا الربّ بصوت البوق، سبّحوه بالمزامير والقيثارة، سبّحوه بالطبل والدفوف، سبّحوه بالأوتار والأرغن، سبّحوه بصوت الصنوج، سبّحوه بصنوج التهليل، وكلّ نسمة فلتسبّح الربّ. وجاء في الأسفار أن ملائكة من السماء تأتي، في آخر الدهر، نافخة الأبواق في جميع أقطار العالم فتستفيق من صوتها الأرواح، وتلبس أجسامها، وتنشر أمام الديّان. لقد عظّم كاتب هذا السفر

الموسيقي، إذ أنزلها منزلة رسول من الله إلى أرواح البشر، وما قول الكاتب إلاّ صورة مشاعره وعلى نوع كلام ينطبق على اعتقادات معاصريه.

وجاء في بدء مأساة البشر أن التلامذة سبّحوا قبيل ذهابهم إلى بستان الزيتون حيث قبض على معلّمهم. وكأنّي الآن أسمع نغم تلك التسبيحة صادراً من أعماق نفوس حزينة رأت ما سيحلّ برسول السلام، فتنفّست عن نغمة مؤثرة نابت عن كلمة الوداع.

*   *   *

تسير الموسيقا، أمام العساكر، إلى الحرب فتجدّد عزيمة حميتهم وتقوّيهم على الكفاح، وكالجاذبية تجمع شتاتهم وتؤلّف منهم صفوفاً لا تتفرّق. ما سارت الشعراء، أمام الكتائب، إلى ساحات القتال، موطن المنيّة، لا ولا الخطباء، ما رافقتهم الأقلام والكتب، بل مشت أمامهم الموسيقا كقائد عظيم، يبثّ بأجسامهم الواهنة قوّة تفوق الوصف، وحميّة تنبّه في قلوبهم حبّ الانتصار، فيغالبون الجوع والعطش وتعب المسير، ويدافعون بكلّ ما في أجسادهم من القوّة، ووراءها يسيرون بفرح وطرب ويتبعون الموت إلى أرض العدوّ المبغوضة. كذا يستخدم ابن آدم أقدس ما في الكون لتعميم شرور الكون.

الموسيقا رفيقة الراعي في وحدته، وهو إن جلس على صخرة في وسط قطيعه نفخ بشبّابته ألحاناً تعرفها نعاجه فترعى الأعشاب آمنة،

والشبّابة عند الراعي كصديق عزيز لا تفارق وسطه، ونديم محبوب، تستبدل سكينة الأودية الرهيبة برياض مأهولة، وتقتل بأنغامها الشجيّة وحشتها، وتملأ الهواء أُنساً وحلاوة.

الموسيقا تقود أظعان المسافرين وتخفّف تأثير التعب وتقصّر مديد الطرقات. فالعيس لا تسير في البيداء إلاّ إذا سمعت صوت الحادي، والقافلة لا تقوم بثقيل الأحمال إلاّ إذا كانت الأجراس معلّقة برقابها. ولا بدع، فالعقلاء في أيّامنا هذه يربّون الضواري بالألحان ويدجنونها بأصوات عذبة.

* * *

الموسيقا ترافق أرواحنا، وتجتاز معنا مراحل الحياة، تشاطرنا الأرزاء والأفراح وتساهمنا السرّاء والضرّاء. وتقوم كالشاهد في أيّام مسرّتنا وكقريب شفيق في أيّام شقائنا.

يأتي المولود من عالم الغيب إلى دنيانا، فتقابله القابلة والأقارب بأغاني الفرح، متأهّلين بأناشيد الابتهاج والحبور، يحييهم، عندما يرى النور، بالبكاء والعويل، فيجيبونه بالتهليل والهتاف كأنّهم يسابقون بالموسيقا الزمان على إفهامه الحكمة الإلهيّة.

وإذا ما بكى الرضيع اقتربت منه والدته وغنّت بصوتها الموسيقي المملوء رقّة وحنّواً فيكفّ عن البكاء ويرتاح لألحان أمّه المتجسمة من

الشفقة وينام، وفي ألحان الوالدة ونغمتها قوّة توعز إلى الكرى ليغمض أجفان طفلها، وتشارك تلك الألحان السكينة بهدوئها، فتزيدها حلاوة وتمحو رهبتها وتملؤها سحراً من أنفاس الأم الحنون حتى يتغلّب الطفل على الأرق، وينام، وتطير نفسه إلى عالم الأرواح، ولا ينام الطفل لو تكلّمت الوالدة بلسان شيشرون أو قرأت ابن الفارض.

ينتقي الرجل شريكة حياته وتتّحد نفساهما برباط الزواج، متمّمين وصيّة كتبتها الحكمة منذ البدء على قلبيهما، فيجتمع الأقارب والخلاّن، ويصدحون بالأناشيد والأهازيج ويقيمون الموسيقا شاهداً عندما يربط القرآن عرس المحبّة، فكأني بها، يوم التعريس، صوت رهيب تمازجه الحلاوة، صوت يمجّد الله في مخلوقاته، صوت ينبّه الحياة النائمة لتسير، وتنتشر، وتملأ وجه الأرض.

وعندما يأتي الموت، ويمثّل آخر مشهد من رواية الحياة، نسمع الموسيقا المحزنة، ونراها تملأ الجوّ بأشباح الأسى.. في تلك الساعة الموجعة، إذ تودّع النفس ساحل هذا العالم الجميل، وتسبح في بحر الأبديّة، تاركة هيكلها الهيولي بين أيدي الملحنين والندّابين، فيتأوّهون بنغمات الحزن والأسف، ويلحفون تلك المادة الثرى ويشيّعونها بألحان مفادها الضيم، وأناشيد معناها الكمد، واللوعة. نغمات يحيونها ما بقي التراب فوق التراب، وإن بليت يبقى صداها في خلايا الجوارح، ما دام القلب يذكر من مضى.

* * *

جالست من ميّزه الله بعذوبة الصوت وحباه إدراك فلسفة التنغيم والإيقاع، فرأيتُ السامعين حوله مصغين صاغرين، ماسكين أنفاسهم، محكومين بفواعل السكينة، شاخصين إليه كالشعراء المستسلمين لقوّة فعّالة، توحي إليهم أسراراً غريبة، حتى إذا ما انتهَى الملحّن من إنشاده تنهّدوا ذاك التنهّد الطويل آه!! آه!! صادرة من أفئدة هيّجت فيها الألحان عواطف مكنونة فلذّ لها التأوّه. آه تتنفسها قلوب حرّى أنعشتها الذكرى آه!! كلمة صغيرة لكنّها حديث طويل. آه!! ما قالها سامع كلام الملحّن لا، ولا ناظر وجهه، بل تنهّدها من أعار أذناً لنشيد نسج من مقاطع أنفاس متقطّعة. أنفاس حيّة مثّلت له فصلاً من رواية حياته الماضية، أو فشت سرّاً أكنّته أضلعه.

وكم تأمّلت وجه سامع حسّاس، فرأيت ملامحه تنقبض تارة، وتنبسط طوراً، وتنقلب مع تقلّبات النغم، واهتديت بخَلقه إلى خُلقه واستحكيت باطنه بواسطة ظاهره.

والموسيقا كالشعر والتصوير، تمثّل حالات الإنسان المختلفة، وترسم أشباح أطوار القلب، وتوضّح أخيلة ميول النفس، وتصوغ ما يجول في الخاطر، وتصف أجمل مشتهيات الجسد.

النهاوند

(النـهـاوند) يمثّـل تفريـق المحبّـين ووداع الوطـن، ويصـف آخـر نظـرة من راحل عزيز، يمثّل شكوى آلام مبرحة بين ضلوع قوامها لظى الشوق. النهاوند صوت من أعماق النفس الحزينة. نغم متجسّـم مـن مـهجور يسـأل عطفاً على رمقه قبل أن يضنيه البعاد. زفرات يائس أنشأتها المرارة وتنهدات قانط بثتها لوعة من أتلفه الصبر والتجلّد. النهاوند يمثّل الخريف، وتساقط أوراق الأشجار المصفرّة بسكينة وهدوء، وتلاعب الريح بها وتفريق شملها. النهاوند صلاة والدة نأى ابنها إلى أرض بعيدة، فباتت بعده تغالب النوى، فيهاجمها بعوامل اليأس، وتصدّه بفواعل الصبر والأمل. وفي النهاوند معنى بل معان وأسرار يفهمها القلب، وتفقهها النفس. أسرار يحاول بثّها اللّسان، وكشفها القلم، فيجفّ هذا، وتنقطع أوصال ذاك.

الأصفهان

وأصغيت (للأصفهان) فشاهدت، بعين سمعي، آخر فصل من حكاية عاشق دنف، مات حبيبه، فتقطّعت عرى آماله، وتواصلت زفراته، فهو ينوح بآخر ما في جسده من الحياة، ويرثي ببقايا ما في حياته من الرمق. الأصفهان آخر نفس من منازع واقف، في مركب الموت، بين شاطئ الحياة وبحر الأبديّة. الأصفهان رثاء الذات بغصّات متقطعة متواصلة وتنهّدات عميقة. نغمة صداها سكينة تمازجها مرارة الموت والأسى وحلاوة الدمع والوفاء.

وإن كان النهاوند حنين من يحيا ببعض الأمل، فالأصفهان أنين من انقصمت عرى آماله.

الصبا

نسـمع (الصبـا) فتسـتفيق منّـا قلـوب حجبتـها لحـف الغـم، وتستيقظ، وترقص بين الضلوع. فالصبا نغمة فرح تنسي المرء أتراحه، فيطلب الراح، ويشربها بلذّة غريبة، ويستزيد منها كأنّه يعلم أن خمرة المسرّة تسابقها فتحكم بالعاقلة. الصبا حديث محبّ مغتبط صارع الدهر، وأرغم أنف البين، وأسعدته الليالي بخلوة، فحظي بلقاء محبوبة جميلة في حقل بعيد، فأولاه اللقاء فرحاً وابتهاجاً. الصبا كنسيمات الصبًا تمرّ فتهتزّ لها أزاهر الحقل تيهاً وابتهاجاً.

الرصَد

و(للرصد) في سكينة الليل، وقع في المشاعر يحاكي تأثير كلمات رسالة جاءت من عزيز غال، انقطعت أخباره في بلاد بعيدة، فجاء الكتاب يحيي عاطفة الأمل، ويعد النفس باللقاء، وكأنّي بمغنّي الرصد يخبر بقرب الفجر، واندحار الظلام، وقد قيل: إن جهز ليلك، فارصد.

وفي العتابا البعلبكيّة عتاب رقيق يراوح بين اللوم والتعنيف، ولحنها مزيج من النهاوند المؤثر، والصبا المفرح، وفعلها في النفس فعلهما.

* * *

والآن وقد كتبتُ هذه الصفحات، أراني كطفل ينسج كلمة من نشيد طويل، غنّته الملائكة عندما جبل الله الإنسان الأوّل، أو كأمّيّ، يستظهر جملة من كتاب وضعته الحكمة على صفحات المشاعر قبيل ابتداء الدهر.

فيما أيّتها الموسيقا، يا أوتربي[1] المقدسة، لقد رقصت أخواتك الفنون فيما غبر من الأجيال زمناً، ووضعن في معاقل النسيان آخر، وأنت تهزئين بهنّ، ولم تتنازلي عن مسرح النفس يوماً واحداً، فكأنّك صدى القبلة الأولى التي وضعها آدم على شفتي حواء. صدى له صدى له صدى، تتناقل، وتتناسخ، وتكتنف الكلّ وتحيا بالكلّ، يلذّ لعمالها عملهم، ويفرح الغير الموهوب من مكارمها بسمعه.

يا ابنة النفس والمحبّة. يا إناء مرارة الغرام، وحلاوته. يا أخيلة القلب البشري. يا ثمرة الحزن، وزهرة الفرح. يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشاعر المضمومة. يا لسان المحبّين ومذيعة أسرار العاشقين. يا صائغة الدموع من العواطف المكنونة. يا موحية الشعر ومنظمة عقود الأوزان. يا موحّدة الأفكار مع نتف الكلام، ومؤلفة المشاعر من مؤثرات الجمال. يا خمرة القلوب الرافعة شاربها إلى أعالي عالم الأخيلة. يا مشجعة الجنود ومطهِّرة نفوس العابدين. يا أيّتها التموّجات الأثيريّة الحاملة أشباح النفس، ويا بحر الرقّة واللطف، إلى أمواجك نسلّم أنفسنا، وفي أعماقك نستودّع قلوبنا، فاحمليها إلى ما وراء المادة، وأرينا ما تكنّه عوالم الغيب.

تكاثري يا عواطف النفوس، وتعاظمي يا مشاعر القلوب، وارفعي أيادي ذوي الأيادي لبناء الهياكل لهذه الإلهة العظيمة، وانزل يا ملاك الوحي على قلوب الشعراء، واسكب في خلايا قريحتهم مديحاً،

---

[1] أوتربي: عروس آلهة الموسيقا عند قدماء اليونان.

وتسبيحاً لهذه العظيمة المقدّسة، واكبري يا مخيّلة الرّسّامين والنقّاشين، وابتدعي لها صوراً وأشباحاً.

كرّموا يا سكان الأرض كهنتها وكاهناتها، وعيّدوا لذكر خدّامها، وشيّدوا لهم التماثيل. صلّي أيّتها الأمم، وسلّمي على أورفيوس وداود والموصلي، وعظّمي ذكر بيتهوفن وفغنر وموزارت، وغنّي يا سورية باسم شاكر الحلبي، ويا مصر باسم عبده الحمولي. كبّر أيّها الكون الألى، بثّوا في سمائك أنفسهم وملؤوا أرواحاً لطيفة، وعلّموا الإنسان أن يرى بسمعه، ويسمع بقلبه. آمين.

فهرس